٩/ ٤/ ١٤٣٥هـ

الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى

شيخ مميز باسمه ورسمه وصوته وأسلوبه عرفته كما عرفه كثيرون من خلال برنامجه المشهور نور وهداية وكذلك على مائدة الإفطار. وقد زدت معرفة بهذا الشيخ الفاضل بعد قراءتي لذكرياته مرتين قطعا، أو ثلاثا شكا

- استمتعت كثيراً بقراءة ذكرياته
- رجل تحبه من وداعته وحسن عرضه للموضوع وطريقة كلامه ومعالجته لبعض المشاكل الاجتماعية.
- صاحب قلم سيّال وذاكرة تختزن كمًّا هائلاً من المعلومات، والذكريات التي تحمل ألما وأملاً.
- ينضح كلامه وكتاباته بالصدق والنصح ويأسرك بقدرته الكتابية.

وأستطيع أن أقول إن الرجل موسوعة من المعلومات المتنوعة ناهيك عن أسلوب كتابي أخاذ، تسترسل في قراءة كتابه دون ملل فالشيخ علي مع وفير علمه الشرعي فهو معدود من كبار الأدباء وهو حقيق بهذا الوصف، ومن أهم ما يذكر فيشكر له في ذكرياته ربط المسلمين بدينهم وبيان أن عزتهم وذلتهم مرهونة بالتمسك بتعاليم دينهم أو التفريط فيها وأعظم ذلك العناية بالتوحيد الخالص والتحذير من البدع والخرافات. فلله در الشيخ علي غيرته وحرصه، يعرف هذا من طالع كتبه ورسائله.

وما أجمل قول القائل:

ومن لم يجرب ليس يعرف قدرة فجرب تجد تصديق ما قد ذكرناه

ولعلي لا أبعد النجعة إذا قلت إنه في هذا العصر: " فقيه الأدباء وأديب الفقهاء"

ومما ينبغي أن يعلم في هذا المقام أن بلاغة أسلوب الشيخ علي وحسه الأدبي كان متميزا به في أوائل عمره الكتابي يؤكد هذا قوله بنفسه :(كان الزيات "بأستاذيته وخبرته يجعل لمن يكتب في الرسالة درجات، فمنهم من ينشر اسمه مجردا بلا لقب، ومن يلقبه بالأديب، ومن يقول عنه الأستاذ، وكل الذين نشروا قبلي في الرسالة (من أدباء الشام) كتب أسماءهم مجردة ،إلا أنور العطار لقبه حينا بشاعر الشباب السوري، ثم أعاده إلى الاسم المجرد، وأنا كتب عني . ولا مؤاخذة . من أول يوم (للأستاذ فلان) وكان يضع مقالتي بعد الطبقة الأولى من الكتاب الكبار مباشرة، وأول من أخذ من الرسالة مكافأة مالية على مقالاته بعد الرافعي والعقاد وطه حسين وأمثالهم هو كاتب هذه الذكريات" !!)

وقد نقل هذا النص عن الشيخ علي الأستاذ عبد الله بن أحمد آل ملحم في كتاب له ثم قال بعده: {وإذا عرفنا أن الشيخ الطنطاوي . يرحمه الله . قد ولد في سنة ١٣٢٨هـ ونشر أولى مقالاته في الرسالة سنه ١٣٥٢هـ فهذا يعني أن الأستاذ الزيات قد قدمه إلى قراء (الرسالة) بلقب: الأستاذ علي الطنطاوي وهو ابن (٢٤سنه)!؟

وما ذاك إلا لأن الطنطاوي كان أستاذا في علمه وأدبه وفكره، وأستاذا في لغته وأسلوبه ونقده، فتقاضى من الزيات ما يستحق، ونال منه ما يجب، ولو لم يكن

أهلاً لذلك لما حاباه الزيات أبدا، ولم تكن أواصر الصداقة قد عقدت بينهما يومذاك }[١].

اتصلت به -قبل لقائي به- هاتفيا مرتين:

الأولى: لخبر فتيا سمعتها منسوبة إليه فنقلتها إلى غيري ولم تطب نفسي حتى توصلت لهاتفه عن طريق دار نشر طبعت كتابا له فلما أخبرته عن سماعي لفتيا منسوبة له ونقلي لها عنه قال: بالحرف: ماذا نقلت؟ ولمن نقلت؟ فأخبرته فأقسم بالله أنه لم يقل ذلك، فشكرته ووعدته بنفي ذلك عنه كلما سمعت ذلك الخبر ينسب إليه.

الثانية: في أثناء قراءتي في ذكرياته مر علي نقده لبعض أبيات الشعر وبيان الخلل العقدي أو السلوكي في تلك الأبيات فوقع في نفسي أن أجمع مصنفا في ذلك. ثم مع تقادم الأيام وقع اختياري على أن يكون موضوع أطروحتي للماجستير في نقد الشعر فاتصلت به وأخبرته بذلك الموضع من كتابه ثم سألته هل هناك كتاب مؤلف في هذا المبحث؟ فذكر عدم معرفته لكتاب معين وأن الشواهد التي ذكرها في كتابه هي من محفوظاته. شاهد المقال: أن موضوع أطروحتي في الماجستير كان يدور في هذا المبحث وعنوان الأطروحة: "القوادح العقدية في شعر العصر العباسي الأول"

و أما مقابلتي للشيخ رحمه الله تعالى فكانت في يوم ٥/ ٤ / ١٤١٨هـ كنت في الحرم المكي فلقيني الشيخ ناصر بن محمد بن طالب فطلب مني زيارة الشيخ

---

١ - شيخ أدباء الأحساء بين الفرض والرفض ص ٩٢

علي وألح علي في ذلك وتكفل بالذهاب والإياب على سيارته فذهبنا سويا إلى منزل الشيخ في جدة فاستقبلنا رجل فاضل يبدو أنه من أسباطه فلما دخلنا مكان الضيافة في المنزل رأيت الشيخ علي رحمه الله تعالى جالسا على كرسي في صدر المجلس وقد أثر فيه تقدم السن والمرض مع ثقل في السمع فسلمنا عليه ثم جلسنا في المقاعد الجانبية صامتين وقد أدنى الشيخ برأسه من صدره فلما مكثنا برهة أردت قطع الصمت فكلمته رافعا صوتي قليلا قائلا له: " يا شيخ جزاك الله خيرا أنت السبب في اختياري موضوع رسالتي الماجستير" فلم أتوقع ردة فعله إذ بدا عليه السرور فنظر إلي وطلب مني الجلوس بجانبه وقال: كيف ذاك يا بني وشعرت بفرحه فأخبرته بالمكالمة الهاتفية السابقة فاعتذر بنسيان ذلك، ثم سألني عن مكان عملي ؟ فقلت له: كلية التقنية. فقال متعجبا التقنية . تقنية . تقني، ثم قال: هذا مصدر ليس سماعيا ولا قياسا، الصواب أن يقال: كلية التقانة. مثل: الزراعة، التجارة، الصناعة وبعد كلام ذكرت له حسن أخلاق مضيفنا، أعني ذلك الرجل الذي استقبلنا وأدخلنا، ثم سألت الشيخ هل هو ابن ابنتكم "بنان" رحمها الله تعالى. فقال: مرددا بنان. بنان . بنان ثم أطرق برأسه. فرأيت تأثره وبخاصة أن سبب موتها رحمها الله تعالى بأيدي آثمه باغية حسبهم الله وكفى بالله حسيبا، ومن قرأ ما كتبه الشيخ عن بنان وقتلها يدرك عظيم محبته لها وعظيم وقوع مصابها عليه، وأحسب أنه يكتب خبرها بمداد من دم قلبه رحمها الله وجمعها به في فردوسه الأعلى.

عودا على بدء لما رأيت تأثره عند ذكر ابنته بنان أدركت حرج الموقف فأردت قطع حبل أفكاره تلك، فسألته عن الشعر ثم قلت له: يا شيخ علي أيهما أشعر عندك شوقي أم حافظ؟ فقال مباشرة: كلاهما من فحول الشعراء لكن شوقي لا يلقي شعره بل يُلقى عنه، بخلاف حافظ فهو الذي يلقي شعره وفي صوته قوة تزيد شعره قوة، ولقد كنت حاضرا عندما ألقى قصيدته أمام الزعيم سعد زغلول أو في حفل تأبينه بعد موته -الشك مني-. وكان اسم سعد يمر في بعض أبيات القصيدة فإذا نطق حافظ باسم سعد كنت أنظر إلى الأرض تحتي هل انشقت أو كادت! وبعد ما فرغ الشيخ رحمه الله تعالى من كلامه وأردنا الاستئذان للخروج أهدانا ذلك الرجل الذي استقبلنا كتاب "فتاوى الطنطاوي" فقلت للشيخ: أحب يا شيخ أن تكتب لي إهداء على الكتاب. فقال: حدث لي موقف بعد كتابه إهداء لأحد الناس أقسمت بعده ألا أكتب إهداءً لأحد. فقلت: هل في ذكر ذلك الموقف حرج عليك. فقال: إن رغبت ذكرته لك وإن أعفيتني فهو أحب إلي. فقلت: الأحب إليك هو الأحب إلي. وعدم الرغبة في ذكر ذلك الموقف حسن أدب من الشيخ وعدم انتقام ممن أساء إليه، وأذكر حادثة له مماثلة لهذه. فقد سمعت من أحد الوجهاء أن الشيخ علي تكلم مرة وبكى أو كاد في أثناء كلامه في أثناء سرد قضية وقعت له تعرض فيها لإساءة من أحد الناس فبلغ الخبر الملك فيصل رحمه الله تعالى فاستدعاه الملك إلى مجلسه وأقسم له الملك بالله أن ينتقم له ممن أساء إليه حتى لو كان أحد أبنائه (أبناء الملك) فقال له الشيخ بما معناه: ويعدني

جلالتكم أن تعطيني ما أطلبه منكم؟ فقال له الملك: لك ذلك. فقال له الشيخ: أرجو إعفائي من ذكر اسم الشخص الذي أساء إلي فأعفاه الملك. رحم الله الملك فيصلا وابنه عبد الله ورحم الشيخ الطنطاوي.

وبعد جلسة ماتعة ودعنا الشيخ رحمه الله تعالى وخرجنا من داره وأقول هنا: جزى الله الشيخ الكريم ناصر بن طالب خيرا على تلك الزيارة المباركة وما هي بأول بركاتكم يا آل طالب. وأما الرجل الذي استقبلنا برحابة وبشاشة فقد عرفني باسمه وكتب إهداء منه إلي على كتاب فتاوى الشيخ ذلكم هو الأستاذ: مجاهد ديراينة بارك الله تعالى فيه وجزاه خيرا.

وبما أن الحديث في سيرة الشيخ علي قد تطرق إلى شيء من شأن الكتاب والأدباء فيقال ها هنا استطرادًا، أقول فيه: لقد بُلي عالمنا الإسلامي بشراذم من الكتاب وطنوا أنفسهم وسخروا أقلامهم في محاربة الفضائل كالعفة والحجاب والحشمة والحياء، وزعموا بذلك أنهم ينشدون الرقي والتقدم لمجتمعاتهم ، والنهوض بأممهم " كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا" استنفروا ما لديهم من ساقط الفكر وأرذله فسطروه في مقالات , دبجوها بأبلغ عبارات الإعجاب والزهو , زاعمين بذلك أنهم أهل الفكر الصائب والنظر الثاقب , وقد جهلوا بل تجاهلوا أنهم ينعقون بترديد نظريات باطلة وأفكار هابطة , قد رفع بعض منظريها يد الاستسلام والبراءة منها . وبعضهم قد عض أصابع الندم من جرائها، لما رأى أن تلك المبادئ التي دعا إليها ودافع عنها، قد جلبت على مجتمعاتهم الشقاء والبلاء وجعلتها تترنح، بل تغرق في

أوحال الفاحشة والرذيلة، ومع هذا كله فلا يزال أولئك الألكاع الذين بليت بهم بلاد المسلمين، يستميتون في الدفاع عن تلك المبادئ الهدامة والأفكار العفنة.

عجباً من أولئك، إذا كان بعض أصحاب تلك المبادئ قد رفع ألوية العداء لها بعد أن ذاقوا مرارتها وتجرعوا غصصها، "فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً".

كتابات متلونة، تفوح بروائح متعددة، فمقال يُبكى به على الإسلام ومقال يُبكى به للإسلام، ومقال يحارب به الإسلام، ومقال لا زمام له ولا خطام. تناقض في المبادئ، واضطراب في الفكر، واختلال في الفهم، كما وصفهم القائل بقوله:

أقول له زيدٌ فيسمع خالداً ويكتبه عمراً ويقرؤه بشراً

وأعجب من هذا كله أنهم تشبعوا بما لم يُعْطَوا فألبسوا أنفسهم ثياب الأدب والفكر والتنظير، ويرون أنهم من أحق الناس بهذا اللباس، وأن على مجتمعاتهم أن تصغي لهم سمعاً، وألا تخالف لهم فكراً ولا نظراً. ولذا تراهم يشنون حرباً شعواء لا رحمة فيها ولا هوادة على من خالفهم، بل لمن ألمح بسقوط فكرهم ورأيهم، ولذا فتراهم يتسابقون ويتبادرون في الرد على مخالفهم ووصفه بالجهل والتخلف والانحطاط. عجباً لا ينقضي من شأن أولئك النشاز أعداء الأمن والأمان، شاهت وجوههم، وقبحت أقوالهم، أليس لهم عقول يدركون بها أقوال من سبقوهم في الدعوة إلى محاربة العفة

والحياء في مجتمعات الشرق والغرب، وكيف قام عقلاء تلك المجتمعات بتحذير أممهم من تلك المبادئ المحاربة للفضيلة الداعية إلى الرذيلة، بل كيف قام بعض أولئك المنظرين بالتصريح جهاراً كلاماً ومقالاً، ببطلان وفساد دعوتهم إلى تحرير المرأة مما زعموه قيداً لها وكبتاً لحريتها؟

وعوداً على ذي بدء، يقال: إن أولئك النشاز مِن الكتبة مِنْ أدرى الناس بغرق مجتمعات الكفر في مستنقعات الرذيلة والفحشاء، ولكن أصحاب تلك الأقلام أصموا آذانهم وأعموا أبصارهم عن ذلك كله، بل صوروا تلك المجتمعات بأنهم رمز التقدم والرقي وأنها المثال الأعلى للحضارة والمدنية. وقال آخر: " لو نهض الشعراء والأدباء بمسؤولياتهم الأدبية لما وقع عالمنا فيما وقع فيه من الويلات والمصائب وأكد ذلك الإخفاق بأن سببه فقدان الشعور بالمسؤولية لدى أولئك الذين يملكون فن الكلمة، وهم الكتاب عامة والشعراء خاصة ". إلى غير ذلك مما جاء في مقالاتهم في هذا الشأن التي ينص مجملها على أن صور الالتزام الأدبي وإن تعددت وتطورت فلابد أن تنطلق من فضيلة يتعلق بها هدف اجتماعي. الله نسأل أن يحفظ بلادنا وبلاد المسلمين ممن أراد بها فساداً وإفسادا.

وختاماً لهذا المبحث أقول: كم يفرح المرء حينما يرى أديباً قد نزه أدبه أو شاعراً قد نزه شعره عن رديء القول وساقطه، فكيف إذا وظف الأدباء والشعراء أدبهم وشعرهم في الترغيب في الفضائل والدعوة إليها وفي الترهيب من الرذائل والتحذير منها. ولا تخلو أمة الإسلام من أولئك، ورحمها ولود ودود بهذا

الصنف زادهم الله تعالى توفيقاً، وهدى من ضل من كتّابنا وأدبائنا وشعرائنا إلى جادة الصواب.

- لطيفة: حدثني الشيخ صالح الفوزان حفظه الله عن شيء من سيرة الشيخ علي الطنطاوي فقال عنه: «إنه ذكيّ، أديب أديب، وكان يدرس معنا في كلية الشريعة فترةً من الزمن».

ثم نقل معالي الشيخ طرفة عن الشيخ الأديب علي الطنطاوي، ومفاد الطرفة: أنّ رجُلًا كان ينقل خضارًا في الشام على سيارة، ومرَّةً حمل على السيارة معه نعشًا قد غطي لأنّ الوقت كان وقت مطر، وفي أثناء الطريق إلى قريته التي سيوصل النعش إليها رأى رجلًا على الطريق يشير بيده طلبًا للركوب معه، فركب الرجل في صندوق السيارة لأنّ هناك راكبًا مع السائق في مقدّمة السيارة، فلما رأى الرجُل النعش المغطى وكانت السماء تُمطر نام على النعش وتغطى بالغطاء، وبينما السيارة تسير إذا رجُل آخَر على الطريق يشير بيده فتوقّف صاحب السيارة له ليركب الرجل في مؤخِّرة السيارة مع الأول، فركب الرجل الثاني فرأى النعش وعليه الرجل الأول مغطى فلم يشكّ أنها جنازة سيذهب بها للدفن، وفي أثناء الطريق أراد الرجل الذي كان على النعش أن يتأكد من كون المطر ما زال مستمرًّا أو قد توقف، فأخرج يده من تحت الغطاء ومدّها ليتأكّد من ذلك، فلمَّا رأى الرجل الآخَر تلك اليد استوحش وقفز من السيارة!

- ثم ذكر الشيخ صالح طرفةً أخرى عن الشيخ الطنطاوي حينما سئل رمز السَّائل قبل سؤاله لاسمه بالحروف «ح ج خ د»، فقال الشيخ الطنطاوي: يا أخي، لو وضعت كلّ حروف المعجم!

ختامًا: رحم الله الشيخ علي الطنطاوي وجعل الفردوس الأعلى مثواه وبارك في ذريته وأسباطه، آمين.

والحمدلله الذي بنعمته تتم الصالحات.